الانضباط الذاتي في الحج (مفهومه – أصوله – آثاره)

محمد عبد رب النبي سيد[1]، إبراهيم علي علي عامر[2]، ياسر جلا شعبان[3]
أستاذ العقيدة والأديان والمذاهب المعاصرة المساعد[1]، أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد[2]، أستاذ الأدب والنقد المساعد[3]
كلية التربية والعلوم – فرع جامعة الطائف بالخرمة

الملخص

إن الحج عبادة مميزة في كيفيتها وشـعائرها وأحكامها ومكانها وزمانها، وهي ذات آثار تربوية جليلة تنبع من خصـائصـها وشـعائرها وزمانها ومكانها، ومن ثم تقع على الحاج مسـئولية كبيرة في إنجاح موسـم الحج وتحقيق مقاصـده الشـرعية، من خلال انضـباط سـلوكياته الشـخصـية والتزامه بأحكامه، ومراعاة آدابه، دونما حاجة إلى كبير عناء في توجيهه والتزامه بما يجب الالتزام به. كما يجب عليه أن يجتهد في مراعاة إخوانه من الحجاج فلا يؤذي أحدا منهم، وأن يكون شـعارهم التراحم لا التزاحم، والتعاون لا التعارض، والتقارب لا التضـارب، والترافق لا التدافع، ولن يتحقق ذلك إلا باسـتشـعار الحكمة الربانية من هذه العبادة، واسـتحضـار وجوب تعظيم حرماتها وشـعائرها، وميزة الاجتماع على طاعة اللّه وطلب مرضـاته، وما في ذلك الاجتماع العظيم من بركة الدنيا والآخرة. وتأتي خطة البحث على نحو ثلاث مباحث ينطوي كل مبحث على مطلبين كالتالي: المبحث الأول يتناول مفهوم الانضـباط الذاتي وأهميته في الحج، وفيه مطلبان: الأول كان في مفهوم الانضـباط الذاتي والثاني يتعلق بأهمية الانضـباط الذاتي في الحج أما المبحث الثاني فقد كان بعنوان أصـول الانضـباط الذاتي في الحج، وفيه مطلبان أولهما الانضـباط الذاتي في الحج في القرآن الكريم و ثانيهما الانضـباط الذاتي في الحج في السـنة النبوية. وأخيرا تناول المبحث الثالث آثار الانضـباط الذاتي في الحج، وفيه مطلبان أولهما آثار الانضـباط الذاتي في الحج أثناء أداء مناسـكه و ثانيهما آثار الانضـباط الذاتي في الحج بعد أدائه، ثم الخاتمة والتي اشتملت على أهم النتائج والتوصيات.

مقدمة

أحمد اللّه الذي جعل البيت مثابة للناس وأمنا، وشــرع للناس حجه وعمارته تكرما منه ومنا، وجعل تعظيم حرماته وشـعائره من تقوى القلوب، ودليلا على تعظيم علام الغيوب، وأصـلي وأسـلم على من أرسـله شـاهدا ومبشـرا ونذيرا، وداعيا إليه بإذنه وسـراجا منيرا، وعلى آله وصـحبه وحزبه صـلاة دوما وتسليما كثيرا.

أما بعد، فإن الحج عبادة مميزة في كيفيتها وشـعائرها وأحكامها ومكانها وزمانها، وهي ذات آثار تربوية جليلة تنبع من خصائصها وشعائرها وزمانها ومكانها، فالحاج ينبغي أن يستشعر عظمة المناسك التي يؤديها والشــعائر التي يقوم بها وحرمة البلد الحرام التي يؤديها فيه، وحرمة الأشــهر والأيام الفضــيلة التي يقوم بها فيها، وينبغي أن ينعكس ذلك كله عليه بالانضــباط نية وقولا وعملا، ولا يفرض عليه ذلك الانضــباط من خارج نفســه، بل ينبغي أن ينبع من داخل ذاته وأن يضــبط نفســه بنفســه بدافع اسـتشـعاره لحرمة المكان الزمان والمكان والشـعائر، ومن ثم فالحج فرصـة عظيمة لتربية النفس على الانضباط الذاتي للمسلم في جميع حياته.

إن على الحاج أن يجتهد غاية الاجتهاد في أن يراعي إخوانه من الحجاج فلا يؤذي أحدا منهم، وأن يكون شعارهم التراحم لا التزاحم، والتعاون لا التعارض، والتقارب لا التضارب، والترافق لا التدافع، ولن يتحقق ذلك إلا باستشعار الحكمة الربانية من هذه العبادة المتميزة في أدائها وكيفيتها ومقاصدها، واستحضار وجوب تعظيم حرماتها وشعائرها، وميزة الاجتماع على طاعة اللّه وطلب مرضاته، وما في ذلك الاجتماع العظيم من بركة الدنيا والآخرة.

إن الحج شـأنه شـأن بقية فرائض الإسـلام لا يجب إلا على المكلف وهو العاقل البالغ، ومن هذه صـفته فحري به أن يتحمل المسئولية في انضباطه الذاتي وذلك بضبط سلوكيات نفسه، بل ومن يحجون معه من غير المكلفين كالصبيان ونحوهم، مما ينعكس إيجابيا على أمن الحجيج وسلامتهم.

وليس المقصـود أن يلتزم الحاج بالانضـباط الذاتي أثناء الحج فقط، بل المقصـود هو تعويده وإكسـاب شخصيته هذه الميزة أو المهارة لتكون خلقا له في جميع شئون حياته بعد الحج أيضا، فيكون قد اكتسب من هذه العبادة قدرة على التحكم الذاتي في أقواله وأفعاله بضـبط نفسـه، بل وضـبط نيته بتحقيق الإخلاص.

أهمية البحث

وتتجلى أهمية البحث في عدة أمور:

- إن انضباط الحاج الذاتي لازم من لوازم إحرامه بالنسك، وقد ناط الشارع به قبول حجه وبره.
- توقف سلامة الحجيج وأمنهم على تحمل كل منهم مسئوليته الفردية في انضباطه الذاتي.
- وجوب تعظيم حرمات اللّه وشعائره ولا يتأتى ذلك إلا بالانضباط الذاتي.
- ينبغي أن يظهر المسـلمون أثناء أدائهم لهذه الفريضـة العظيمة التي يتابعها العالم كله عبر شاشات التلفزة الفضائية وغيرها من وسائل الإعلام بثا مباشرا بمظهر حضاري يعكس صورة الإسلام الحضارية.
- إن القرآن والسنة قد اهتما بتربية المسلم في حياته عامة وفي عباداته خاصة بضبط النفس ومحاسبتها وبالتحرز من سيء الأخلاق والأقوال والأعمال، والتحري لأحسنها.

مشكلة البحث

إن عبادة الحج متميزة في طابعها؛ حيث يؤديها ملايين المسـلمين في زمان واحد وفي مكان واحد في أداء جماعي متسـق ومتناغم؛ ومن ثم كان من الواجب على كل منهم أن يتحمل مسـئولية ضـبط الذات والتحكم في سلوكيات نفسه ليحافظ على أمنه وسلامته وكذلك أمن وسلامة إخوانه من الحجيج، تمشيا مع حرمة المكان والزمان والحدث، واسـتجابة لأوامر اللّه واتباعا لهدي رسـوله ﷺ في ضـبط نيته وأقواله وأفعاله.

أهداف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق عدة أمور أهمها:

- توعية الحجاج بالمسئولية الفردية عن الانضباط الذاتي خلال أداء مناسك الحج.
- تربية المسلم وتعويده من خلال أداء هذه العبادة على الانضباط الذاتي دون حاجة إلى توجيه خارجي أو رقابة خارجية.
- توجيه المرشدين والدعاة إلى توعية الحجاج بضرورة الانضباط الذاتي وأهميته ليكون حجهم مبرورا.
- التركيز على أهمية تنمية مهارة الانضباط الذاتي باعتباره واحدا من مقاصد الحج.
- تقليل نسبة الحوادث والمخاطر الناتجة عن السلوك الفردي الخاطئ لبعض الحجاج.
- توجيه الحاج إلى ضرورة التعاون مع الجهات المنظمة للحج للمساهمة في إنجاح الموسم.
- إظهار المسلمين بمظهر حضاري نابع من روح دينهم وعقيدتهم أثناء أدائهم لهذه المناسك التي يتابعها العالم كله عبر وسائل الإعلام المختلفة.

منهج البحث

أقوم إن شاء الله بعرض بعض أقوال المفسرين وأهل العلم في تفسير النصوص الشرعية واستنباط وجه دلالتها على وجوب الانضباط الذاتي في الحج، مع عزو الآيات إلى سورها وذكر أرقامها، وتخريج الأحاديث، ونسبة الأقوال إلى أصحابها، والنصوص إلى مراجعها، مع وضع الآيات والأحاديث والنصوص المنقولة بين علامتي تنصيص، وترتيب المراجع في نهاية البحث على حسب أسماء المؤلفين على حروف الهجاء، فسنة النشر، فعنوان الكتاب، فاسم الناشر، فمدينة النشر.

سائلا المولى العلي القدير أن يهبني التوفيق السداد، ويهديني سبيل الرشاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: مفهوم الانضباط الذاتي وأهميته في الحج

يعد مصطلح "الانضباط الذاتي" من المصطلحات الحديثة التي أصبحت متداولة في مجالات عديدة منها مجال التنمية البشرية، فما معنى هذا المصطلح؟ وما أهمية تحقيقه أثناء أداء مناسك الحج؟

المطلب الأول: مفهوم الانضباط الذاتي:

قبل تعريف هذا المصطلح بالمعنى اللقبي يجدر تعريفه بالمعنى الإضافي:

أولا: تعريف الانضباط في اللغة: هو انفعال من الضَّبْط، وهو: "لُزُومُ الشَّيْءِ وحَبْسُه، ضَبَطَ عَلَيْهِ، وضَبَطَه يَضْبُطه ضَبْطاً وضَباطةً، وَقَالَ اللَّيْثُ: الضّبْطُ لزومُ شَيْءٍ لَا يُفَارقُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وضَبْطُ الشَّيْءِ حِفْظُه بِالْحَزْمِ، وَالرَّجُلُ ضابِطٌ أي حازمٌ". [ابن منظور، ١٤١٤هـ]

وفي الاصطلاح: هو "ضبط الميول والسلوك إما بإرادة الفرد نفسه، أو بتأثير سلطة خارجية". [مجمع اللغة العربية، ١٩٨٤م]

ومن هذا التعريف يتضح لنا أن الانضباط إما أن يكون ذاتيا أي نابعا من داخل الفرد، أو يكون ناتجا عن مؤثرات صادرة من خارج ذاته.

ثانيا: تعريف الذاتي: نسبة إلى لفظ الذات وهي "مَا يصلح أن يعلم ويخبر عَنهُ، مَنْقُول عَن مؤنث (ذُو) بِمَعْنى الصاحب، .. وَقد يُطلق الذَّات وَيُرَاد بِهِ الْحَقِيقَة، وَقد يُطلق وَيُرَاد بِهِ مَا قَامَ بِذَاتِهِ، وَقد يُطلق وَيُرَاد بِهِ المستقل بالمفهومية، ويقابله الصّفة بِمَعْنى غير مُسْتَقل بالمفهوميه، وَقد يسْتَعْمل اسْتِعْمَال النَّفس وَالشَّيْء فَيجوز تأنيثه وتذكيره". [الكفوي، بدون]

و"الذاتي لكل شيء: ما يخصه ويميزه عن جميع ما عداه، وقيل: ذات الشيء: نفسه وعينه" [الجرجاني، ١٤٠٣ه-١٩٨٣م]

إذن فكلمة الذاتي قيد للانضباط يخرج المعنى الثاني ويبقي المعنى الأول، ومن ثم يمكن تعريف الانضباط الذاتي بالمعنى اللقبي بأنه: "سلوك أو فعل يتم وفق القواعد الأخلاقية أو القانونية المعتمدة، وتأدية الواجب بإتقان بدون مراقب خارجي". [تقية حسان، ٢٠١٤م].

ويعتمد هذا النوع من السلوك على قمع النزعات السلبية، والرغبات الشريرة، ويقوم على قوة الإرادة، والعزم، والتحكم في النفس وعدم الانصياع للأهواء" [محمود إسماعيل عمار، ١٩٩٩م]

المطلب الثاني: أهمية الانضباط الذاتي في الحج:

تتجلى أهمية الانضباط الذاتي عموما في كونه السمة الأولى التي تقوم عليها حياة الإنسان العملية؛ فبدون هذا الانضباط لا يمكن للمرء أن يحقق أي نجاح يذكر في حياته. [عبدالله بخيت، بدون]

فهو يشكل نوعا من أنواع أخلاقية العمل، ويدعم سلوك الأفراد في ميدان الممارسة على مستوى جميع نشاطات العمل، سواء كانت مؤسسات ذات أهداف اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، والالتزام بسلوك الانضباط الذاتي يقوم بتقليل الخسائر واكتشاف نقاط التقصير، ومحاولة علاج هذا القصور، وتعديل الانحرافات في العمل قبل تفاقمها، واستشعار العاملين فيها، ومحاسبة النفس باستمرار، والحرص على أداء دوره بروح من المسئولية والإخلاص، كلها تعتمد على هذا السلوك الرشيد في تحقيق أهدافها. [تقية حسان، ٢٠١٤م]

فإذا نظرنا إلى أهمية الانضباط الذاتي في الحج خصوصا، فإننا لا نبالغ إذا قلنا إنه لا يمكن لهذه العبادة أن تؤتي ثمارها في نفس الفرد والجماعة على حد سواء ما لم يلتزم الحجيج به.

إن الإحرام هو الركن الأول من أركان الحج –عند الجمهور- وهو شرط من شروط صحته عند الحنفية، وهو نية الدخول في حرمات الحج والعمرة أو هو نفس الدخول، وبه يحرم على الحاج أمور كثيرة لم تكن محرمة قبله كلبس المخيط، والتطيب، والجماع ومقدماته، وعقد النكاح، وتغطية رأسه، وصيد البر، وإزالة شيء من شعره أو أظافره، عامدا ذاكرا مختارا، وارتكاب بعض هذه المحظورات يفسد الحج ويوجب الهدي، وبعضها يوجب الفدية، وبعضها يوجب الجزاء وهو الصيد، واجتناب المحرم لهذه المحظورات يقتضي منه أن يكون على أعلى درجات الانضباط الذاتي، ليكون حجه صحيحا مبرورا، وليكون ذنبه مغفورا، وسعيه مشكورا، وأجره موفورا.

ومن ثم فإن الانضباط الذاتي في الحج له أهمية عظيمة سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

فعلى المستوى الفردي:

- لابد أن يتحمل كل حاج مسئوليته في الانضباط الذاتي ليكون حجه مبرورا، وسعيه مشكورا، فيعود منه كيوم ولدته أمه، وهذا غاية ما يسعى إليه من حجه، ولا يتأتى ذلك إذا حدث منه ما يخل بأداء هذه الشعيرة العظيمة من سوء نية أو قول أو فعل.
- ولابد لتحقيق سلامته الشخصية في ظل هذا العدد الضخم من الحجيج أن يكون على مستوى عال من الانضباط الذاتي، فيتبع تعليمات رجال الأمن والمرور وغيرهم من المسئولين عن خدمة الحجيج وتوجيههم وإرشادهم، ويتعاون معهم على أداء مهامهم بنجاح.

- في التزاحم قد يتعرض الحاج لبعض المضـــايقات من بعض الناس كالتدافع مثلا، فعليه أن يتحمل ذلك لا أن يشـــارك فيه ويبادل فاعل ذلك بمثله وربما تطور الأمر إلى التلاســـن وربما التشـاجر، وهذا كله لا يتناسـب مع حرمة الزمان والمكان وحرمة هذه العبادة العظيمة، بل لابد أن يتحلى بالصبر ورباطة الجأش واحتمال الأذى وليس فقط كفه عن الآخرين.
- في تحمل الحاج لمسـئوليته في الانضـباط الذاتي ما يجعل أعمال الحج سـهلة عليه ميسـرة بحيث تقل أعباؤها ومشقتها، ويستطيع أداءها على الوجه الأكمل دون أن يفوته منها شيء أو ينقص منها شيء.
- أما أهمية الانضباط الذاتي في الحج على المستوى الجماعي فتتجلى في عدة أمور أهمها.
- تحقيق سلامة جموع الحجيج وأمنهم، فبانضباط الأفراد ذاتيا يحصل الانضباط الجماعي الذي ينتج عنه تقليل الحوادث التي قد تقع نتيجة الأخطاء التي من الممكن أن يرتكبها بعض الحجاج كالتدافع والتزاحم، وعدم الالتزام بتنبيهات رجال الأمن وقواعد السـلامة، أو عدم الالتزام بالمسارات المحددة للحجاج في تنقلهم بين المشاعر، أو أثناء تواجدهم فيها.
- ظهور الحجاج بمظهر حضـاري أمام العالم يعبر عن حضـارية الإسـلام وحضـارية شـعائرها وسموها وعظمتها.
- تحقيق ما يقصـده الشـرع من هذه العبادة العظيمة كالتعارف بين المسـلمين والتآلف والتقارب والتراحم بديلا عن التشاغب والتخالف والتضارب والتزاحم، فيكونوا عباد الله إخوانا كما أمرهم الله، ويصبحوا كالجسد الواحد وكالبنيان المرصوص كما مثلهم رسولهم ﷺ.
- الشـــعور بروحانية العبادة وقدســـيتها لا يتحقق إلا بقيام المجموع بالانضـــباط الذاتي، وذلك بمراعاة حرمات الله وتعظيم شعائره، فيجب عليهم ملاحظة حرمة المكان والزمان والأركان.

المبحث الثاني: أصول الانضباط الذاتي في الحج

اهتم القرآن الكريم والسنة المطهرة بحث الحجيج على الانضباط الذاتي من أول شروعهم في مناسك الحج حتى نهايتها، وربط قبول العبادة منهم وتحقق ما يرجونه من مغفرة السـيئات وكسـب الحسـنات

ورفع الدرجات وتحقيق الحج المبرور به، وذلك يتجلى بوضـوح في كثير من الآيات والأحاديث التي بينت أحكام الحج وآدابه.

المطلب الأول: الانضباط الذاتي في الحج في القرآن الكريم.

بين القرآن الكريم أن هذه العبادة العظيمة قد اختار الله لها أقدس مكان وهو البلد الحرام، وأشرف زمان وهو الأشـهر المعلومات، فللمكان حرمة عظيمة وللزمان كذلك وللشـعائر التي يؤدونها كذلك حرمة عظيمة، ومن ثم كان لابد لمن تلبس بهذه الشـعائر العظيمة في هذا المكان المقدس وفي هذه الأيام الفضيلة أن يراعي حرمتها فيضبط نيته وأقواله وأفعاله عن كل ما يخل بها وينتهك حرمتها، وقد توعد الله بأشـد الوعيد من انتهك هذه الحرمات ولو بمجرد النية، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [٢٥] [الحج: ٢٥]

"وقوله تعالى: {الذي جعلناه للناس سـواء العاكف فيه والبادِ} هو وصـف للمسـجد الحرام إذ جعله الله تعالى موضـع تنسـُّك لكل من أتاه وأقام به أو يأتيه للعبادة ثم يخرج منه، فالعاكف أي المقيم فيه كالبادي الطارىء القدوم إليه هم سـواء في حق الإقامة في مكة والمسـجد الحرام للتعبد، وقوله تعالى: {ومن يرد فيه بإلحاد بظلم} أي يرد بمعنى يعتزم الميل عن الحق فيه بظلم يرتكبه كالشـرك وسـائر الذنوب والمعاصي القاصرة على الفاعل أو المتعدية إلى غيره. وقوله تعالى: {نذقه من عذاب أليم} هذا جزاء من كفر وصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، ومن أراد فيه إلحاداً بظلم لنفسه أو لغيره". [أبو بكر الجزائري، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م]

"هذا ولم يؤاخذ الله تعالى أحداً من خلقه على الهم بالمعصـية ما لم يرتكبها، ولا بالشـروع فيها ما لم يأتها؛ إلا في المسـجد الحرام: فإن من يهم فيه بالذنب: كمن يقترفه وذلك لأن الإنسـان يجب عليه أن يكون في الحرم طاهر الجسـم، نقي القلب، صـافي السـريرة، خالصـاً بكليته لله، طامعاً في مغفرته، مشفقاً من غضبه وإن من ينتهك حرمة الملك بمعصيته في حماه، وداخل بيته: أجرأ على المعصية ممن يرتكبها بعيداً عنه وحقاً إن من تهجس نفسـه بالسـوء؛ وهو في داخل الحرم الآمن: لجدير بالجحيم، والعذاب الأليم". [ابن الخطيب، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م]

وقد ربط القرآن الكريم ضـبط الحاج لنفسـه وسـلوكياته مراعاة لحرمة المكان والزمان والعبادة التي يمارسها والحالة التي هو عليها من الإحرام بالأجر والثواب من الله تعالى، قال سبحانه: ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلاّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّور [الحج: ٣٠]

"يقول: ومن يجتنب ما أمره الله باجتنابه في حال إحرامه تعظيما منه لحدود الله أن يواقعها وحُرمَه أن يستحلها، فهو خير له عند ربه في الآخرة". [الطبري، ١٤٢٠ه-٢٠٠٠م]

"وَالْحُرْمَةُ مَا لَا يَحِلُّ هَتْكُهُ وَجَمِيعُ مَا كَلَّفَهُ اللَّه تَعَالَى بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَغَيْرِهَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا فِي جَمِيعِ تَكَالِيفِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَاصًّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَجِّ، وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ الْحُرُمَاتُ خَمْسٌ: الْكَعْبَةُ الْحَرَامُ وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَالْبَلَدُ الْحَرَامُ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْمَشْعَرُ الْحَرَام". [الفخر الرازي، ١٤٢٠هـ]

كما جعل تعظيم هذه الشعائر دليلا على التقوى وعلامة عليها، قال عز وجل: ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ. [٣٢]

"قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الشَّعَائِرُ سِتٌّ: الصَّفَا، وَالْمَرْوَةُ، وَالْبُدْنُ، وَالْحِمَارُ، وَالْمَشْعَرُ الْحَرَامُ، وَعَرَفَةُ، وَالرُّكْنُ، وَتَعْظِيمُهَا إِتْمَامُ مَا يُفْعَلُ فِيهَا، وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ وَالْحَسَنُ وَمَالِكٌ وَابْنُ زَيْدٍ: مَوَاضِعُ الْحَجِّ كُلُّهَا وَمَعَالِمُهُ بِمِنًى وَعَرَفَةَ وَالْمُزْدَلِفَةِ وَالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَالْبَيْتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذَا نَحْوٌ مَنْ قَوْلِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقِيلَ: شَرَائِعُ دِينِهِ وَتَعْظِيمُهَا الْتِزَامُهَا وَالْمَنَافِعُ الْأَجْرُ". [أبو حيان، ١٤٢٠ه]

كما بين القرآن الكريم ما يجب على المحرم بالحج من ضبط أقواله وأفعاله وأخلاقه عن التلبس برفث أو فسوق في قوله تعالى: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنّ الْحَجّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى وَاتّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ [البقرة: ١٩٧]

"وَهِيَ وصَايَةٌ بِفَرَائِضِ الْحَجِّ وَسُنَنِهِ وَمِمَّا يَحِقُّ أَنْ يُرَاعَى فِي أَدَائِهِ، وَذُكِرَ مَا أَرَادَ اللَّهُ الْوصَايَةَ بِهِ مِنْ أَرْكَانِهِ وَشَعَائِرِهِ، وَقَدْ ظَهَرَتْ عِنَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ، إِذْ بَسَطَ تَفَاصِيلَهَا وَأَحْوَالَهَا مَعَ تَغْيِير مَا أَدْخَلَهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ فِيهَا". [ابن عاشور، ١٩٨٤م]

"وقوله: { فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصا الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه، من الرفث وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصا عند النساء بحضرتهن، والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجدال وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة، والمقصود من الحج، الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبرورا والمبرور، ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنها يتغلظ المنع عنها في الحج". [السعدي، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م]

فإذا كان الله تعالى قد نهى عن الجدال في الحج الذي هو مجرد المراجعة في القول، فما بالك بما فوقه من التشاتم والتزاحم والتدافع والتقاتل ونحو ذلك؟

المطلب الثاني: الانضباط الذاتي في الحج في السنة النبوية.

بين النبي ﷺ أن مكة لها حرمة عظيمة عند الله ومن ثم كان لها من الأحكام الخاصة ما تجب مراعاتها لحرمتها وهو ما يجعل الحاج أو المعتمر بها يضبط نفسه غاية الانضباط حتى يسلم منه حيوانها ونباتها وجمادها وكل ما فيها، كما جاء في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «حَرَّمَ اللَّهُ مَكَّةَ فَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلاَ لِأَحَدٍ بَعْدِي، أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، لاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلاَ تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُعَرِّفٍ» [أخرجه البخاري]

ومعناه: "(لا يختلى) بضم أوله وسكون ثانيه المعجم وفتح لامه (خلاها) بالقصر وفتح الخاء المعجمة، لا يجز ولا يقطع كلؤها الرطب الذي نبت بنفسه. (ولا يعضد) بضم أوّله وفتح ثالثه، أي: لا يكسر (شجرها، ولا ينفر صيدها) أي: لا يزعج من مكانه (ولا تلتقط لقطتها) بفتح القاف وسكونها، أي: لا ترفع ساقطتها (إلا لمعرف) يعرفها، ولا يأخذها للتمليك بخلاف سائر البلدان". [القسطلاني، ١٣٢٣هـ]

كما ربط النبي ﷺ قبول الحج وبره وغفران ذنوب الحاج بضبط نفسه عن الرفث والفسوق، فقال: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» [متفق عليه]

قال السيوطي: "{فَلم يرْفث} بِضَم الْفَاء وَكسرهَا، والرفث الْفُحْش من القَوْل، وَقيل: الْجِمَاع، وَلم يفسق بارتكاب شَيْء من الْمعاصِي، {رَجَعَ كَيَوْم وَلدته أمه} أَي بِغَيْر ذَنْب، قَالَ الْقُرْطُبِيّ وَهَذَا يتَضَمَّن غفران الصَّغَائِر والكبائر والتبعات". [١٤١٦هـ-١٩٩٦م]

فالرفث والفسوق المنهي عنهما شاملان لكل المناهي القولية والفعلية، فالمقصود هو وجوب صيانة الحاج نفسه عن كل منهي عنه قولي أو فعلي يخل بحالة إحرامه وبمكانه وزمانه وعبادته.

وقد يحمل حرص بعض الناس على أداء المنا سك أو الا ستعجال فيه أن يؤذي بعض إخوانه من الحجيج، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وأرشد إلى الرفق والطمأنينة وترك التزاحم والتدافع في أداء المناسك، كما جاء في حديث جابر الطويل، (وَدَفَعَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَقَدْ شَنَقَ لِلْقَصْوَاءِ الزِّمَامَ، حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ، وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى «أَيُّهَا النَّاسُ، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ». [أخرجه مسلم]

ومَعْنَى {شَنَقَ} ضَمَّ وَضَيَّقَ، و{مورك الرَّحْل} هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُثْنِي الرَّاكِبُ رجْلَهُ عَلَيْهِ قُدَّامَ وَاسِطَةِ الرَّحْلِ إِذَا مَلَّ مِنَ الرُّكُوبِ.. وَفِي هَذَا اسْتِحْبَابُ الرِّفْقِ فِي السَّيْرِ مِنَ الرَّاكِبِ بِالْمُشَاةِ وَبِأَصْحَابِ الدَّوَابِّ الضعيفة، قوله: {ويقول بِيَدِهِ السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ} مَرَّتَيْنِ مَنْصُوبًا، أي الْزَمُوا السَّكِينَةَ، وَهِيَ الرِّفْقُ وَالطُّمَأْنِينَةُ، فَفِيهِ أَنَّ السَّكِينَةَ فِي الدَّفْعِ مِنْ عَرَفَاتٍ سُنَّةٌ فَإِذَا وَجَدَ فُرْجَةً يُسْرِعُ. [النووي، ١٣٩٢هـ]

المبحث الثالث: آثار الانضباط الذاتي في الحج

إن الانضباط الذاتي ينبغي أن يكون خلقا للمسلم في حياته عامة، وفي الحج خاصة فإذا ما التزم به في الحج كان لالتزامه هذا آثاره الإيجابية أثناء الحج وبعده.

المطلب الأول: آثار الانضباط الذاتي في الحج أثناء أداء مناسكه.

للانضباط الذاتي في الحج آثار إيجابية كثيرة تترتب عليه وتعود على الحاج نفسه وعلى مجموع الحجيج أثناء تأدية المناسك يمكن أن نجملها في عدة أمور:

- سهولة تأدية المناسك وانسيابية حركة الحجيج وتنقلهم بين المشاعر.
- تحقيق أمن وسلامة الحجاج من مخاطر التزاحم والتدافع.
- الشعور بروحانية العبادة والاستمتاع بأدائها فلا شك أن الحوادث والمشاكل تفقد الحاج قدرا من هذا الشعور.

- تحقيق المقاصد الشرعية من الحج كالتعارف والتآلف بين المسلمين والتواد والتراحم والتعاون على البر والتقوى.
- مراعاة ما يجب مراعاته من تعظيم حرمات الله المكانية والزمانية وكذلك تعظيم الشعائر.
- تحقيق الحج المبرور الذي أخبر عنه النبي ﷺ بأنه "ليس له جزاء إلا الجنة" [متفق عليه].
- تحقيق غفران الذنوب بإذن الله كما سبق في الحديث.
- ظهور الحجيج بمظهر حضاري يعكس الصورة الحضارية للإسلام في أدائهم لهذه المناسك العظيمة بطريقة سلسة ومنظمة.
- تمكين الجهات المعنية بتنظيم موسم الحج، وتفويج الحجاج، وتأمينهم، والإشراف على تغذيتهم وصحتهم من أداء عملهم بسهولة ويسر ووصول هذه الخدمات لجميع الحجاج في الوقت المناسب
- نجاح موسم الحج.

هذا وتقوم الدولة السعودية حرسها الله بجهد مشكور متمثلة في وزارة الحج والرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين في توعية الحجاج وتوجيههم بطرق مختلفة إلى الانضباط الذاتي، وإننا لنأمل منهم المزيد في هذا الجانب وتعميمه في كافة المشاعر لتتحقق ثمرته وتعم فائدته، سائلين الله تعالى لهم التوفيق والإعانة.

المطلب الثاني: آثار الانضباط الذاتي في الحج بعده.

هناك العديد من الآثار الإيجابية الصحية والتربوية والخلقية والسلوكية والمهارات العملية التي يكتسبها الحاج من خلال ممارسة تجربة الانضباط الذاتي في الحج وتظهر عليه في حياته العامة بعد الحج، منها:

- عودة الحجيج إلى ديارهم سالمين غانمين مسرورين بما من الله عليهم من أداء هذه الشعائر العظيمة دون عوائق أو مشاكل.
- إكساب المسلم من خلال تجربة الحج مهارة ضبط النفس والانضباط الذاتي في حياته العملية بعد الحج وتغيير سلوكياته تغييرا إيجابيا.

- السـمو الروحي والرقي الأخلاقي والتهذيب الوجداني معان عظيمة يكتسـبها الحاج من حجه إذا ما نجح في تحقيق الانضباط الذاتي وتظهر على سلوكياته بعد الحج.
- القدرة على تحمل المسئولية.
- الإيجابية والتعاون مع الآخرين.
- تعد الإقامة في مكة مع المحافظة على نباتها وطيرها وسـائر الكائنات بها تدريبا عمليا على المحافظة على البيئة.
- تعزيز مبدأ الرقابة الذاتية لدى المسـلم في حياته العملية وسـائر أحواله وتعاملاته مع الناس من منطلق إيماني تعبدي، وهو المعنى العميق لمصطلح (التقوى).

الخاتمة

من خلال ما سبق يخلص البحث إلى عدة نتائج من أهمها ما يلي:

- ضرورة استشعار الحاج لمسئوليته عن تحقيق الانضباط الذاتي أثناء أدائه مناسك الحج.
- اهتمام القرآن الكريم بأمر الحجاج بالانضـباط الذاتي قوليا وفعليا، كما في قوله تعالى: "فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسـوق ولا جدال في الحج"، وأن ذلك من قبيل تعظيم حرمات اللّه وشعائره وعلامة على التقوى وحسن الثواب.
- اهتمام النبي ﷺ بتوعية الحجاج بضرورة الالتزام السلوكي والانضباط الذاتي أثناء أداء المناسك كما في ندائه لهم "السكينة السكينة"، وربط قبول الحج بمدى تحقيق هذا الانضباط كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه".
- أن الانضـباط الذاتي في الحج له أبعاد وآثار تربوية وحضـارية على سـلوكيات الحجاج أثناء أدائهم لمناسك الحج وتحقيق أمنهم وسلامتهم.
- أن هذه الآثار التربوية والحضارية تنعكس إيجابا على سلوكيات الحاج في حياته بعد الحج.

التوصيات:

يوصي الباحث من خلال هذا البحث بعدة توصيات أهمها:

- أن تهتم الدول والجمعيات التي ترسل الحجاج بتوعيتهم بأهمية الانضباط الذاتي أثناء الحج ومسئوليتهم عن ذلك.
- عقد دورات تدريبية وورش عمل للمرشدين والدعاة للاهتمام على تحفيز شعور الحجاج بمسئوليتهم عن ضبط سلوكياتهم والتزامهم بآداب هذه الشعائر المقدسة.
- اهتمام وسائل الإعلام في المملكة العربية السعودية والدول الإسلامية بالتركيز على توعية الحجاج بضرورة الانضباط الذاتي كشرط شرعي لقبول الحج وبره وكمظهر إسلامي حضاري.
- أن تقوم وزارة الحج والجهات المسئولة بإصدار المطبوعات والنشرات وتوزيعها على الحجاج ووضع اللوحات الإرشادية في ساحات الحرمين والمشاعر المقدسة لتوعية الحجاج بضرورة الانضباط الذاتي لتحقيق أمنهم وسلامتهم.
- عمل مسابقة بين بعثات الحجاج المختلفة بعنوان (البعثة المثالية للحج) في الالتزام بتحقيق الانضباط الذاتي والتعاون مع الأجهزة المعنوية والظهور بمظهر حضاري أثناء أداء المناسك تشجيعا على روح التنافس والتسابق بين الحجاج على تحقيقه.

المراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الخطيب، محمد محمد عبد اللطيف، ١٣٨٣ه-١٩٦٤م، أوضح التفاسير، ط/ المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة.
- ابن عاشور، الطاهر، ١٩٨٤م، التحرير والتنوير، ط/ الدار التونسية، تونس.
- ابن منظور، جمال الدين، ١٤١٤ه، لسان العرب، ط/ دار صادر، بيروت.
- أبو حيان، أثير الدين، ١٤٢٠ه، البحر المحيط، ط/ دار الفكر، بيروت.
- البخاري، أبو عبد الله، ١٤٢٢ه، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، ط/ دار طوق النجاة.
- تقية حسان، ٢٠١٤م، دعائم الانضباط الذاتي، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ج/ قسم العلوم الاجتماعية، العدد ١٢، جوان ٢٠١٤، ص١٠-٢٧.
- الجرجاني، ١٤٠٣ه-١٩٨٣م، التعريفات، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت.
- الجزائري، أبو بكر ١٤٢٤ه-٢٠٠٣م، أيسر التفاسير، ط/ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
- الرازي، فخر الدين، ١٤٢٠ه، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، ١٤٢٠ه-٢٠٠٠م، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت.

- السيوطي، جلال الدين، ١٤١٦ه-١٩٩٦م، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، ط/ دار ابن عفان، الخبر.
- الطبري، أبو جعفر، ١٤٢٠ه-٢٠٠٠م، جامع البيان في تأويل القرآن، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت.
- عبدالله بن بخيت، بدون، الانضباط الذاتي طريق النجاح، لكي تنجز أهدافك.
- القسطلاني، أبو العباس، ١٣٢٣ه، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ط/ المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة.
- الكفوي، أبو البقاء، بدون، الكليات، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت.
- مجمع اللغة العربية، ١٩٨٤م، معجم علم النفس والتربية، ط/ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة.
- محمود إسماعيل عمار، ١٩٩٩م، تعليم بلا عقاب (الثواب والعقاب في التربية)، ط/ دار عالم الكتب، الرياض.
- مسلم بن الحجاج، بدون، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- النووي، أبو زكريا، ١٣٩٢ه، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت.